زرقاء ال

ملخص

ذكر الخبر الذي قيل عن زرقاء اليمامة، نقلاً عن المصادر الموثوق بها والإشارة إلى الفترة الزمنية التي وجدت بها قبيلتا طسم وجديس، وموقعها على الخارطة العربية قديماً وحديثاً.

ذكر الاختلافات التي قيلت حول اسم الزرقاء، وإثبات أن اسمها اليمامة بنت مرة. وليست عنز كما قال الجاحظ أو حذام كما قال أصحاب المنجد.

الإشارة إلى أن القصة صاحبها التهويل والتشكك في أنها حدثت بالفعل لعدة أسباب فُصّلت في المقال..

القصة تثبت أن للعرب معرفة بالقصة القصيرة قبل المدارس الأوروبية الحديثة.

وعلى الله قصد السبيل

بقلم الأستاذ عبدالله السيد شرف

يمامة

كم هو عظيم هذا التراث الذي خلفه لنا الأولون، والذي نراه متناثراً في بطون الكتب وأمهاتها، وكم يكون جميلاً لو أننا تعرضنا له بالبحث الجاد، والتنقيب الدائم، بأسلوب يتفق ولغة العصر. وبعقلانية تنير لنا الطريق.

وإنها لدعوة طيبة تلك التي نادى بها الأستاذ — محمد حسين زيدان — على صفحات عدد الدارة الصادر في شوال ١٤٠٢ هـ، حيث دعا الكتاب للإدلاء بكتاباتهم حول عدة مسائل تاريخية، من بينها — زرقاء اليمامة —، وقد صادفت دعوته هوى في النفس فكانت هذه المحاولة التي أرجو من ورائها الوقوف على حقيقة هذه القصة، والتأكد من وقوعها، أو إظهار عدم حدوثها. وعذرى إن قصرت أن هذا جهدي، [إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت].

لقد تحدثتْ معظم المراجع الأدبية والتاريخية عن قصة زرقاء اليمامة، ونادراً ما يتجاهلها كاتب ما، فالبعض يتناولها بالتفصيل، والبعض الآخر بالإشارة والإيجاز، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ... هل القصة حقيقية، أم أنها مجرد قصة خيالية ليس إلا؟..

وقبل أن نجيب على هذا السؤال، يجب أن نذكر القصة أولاً لنقف على حقيقة الأمر وحتى نستخلص لأقدامنا مواقعاً للخطو، دون تحيز لرأي دون آخر، والله المستعان.

● قصة الزرقاء ●

ترجع جذور هذه القصة إلى العصر الجاهلي، وقد حدد زمنها بعضهم فقال في **(القرن العاشر قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام)**⁽¹⁾ بينما يرى بعض المستشرقين أن هلاك طسم وجديس كان (حوالي ٢٥٠ ق.م. رغم أنه ليس في الآثار والأخبار ما يؤكد شيئاً، والأرجح أنهم أقدم من هذا)⁽²⁾ أما موقع هذه القصة فهي — اليمامة — التي كانت تسمى وقت حدوثها «جَوّ» (بفتح الجيم وتشديد الواو)، وقد ذكرها ياقوت فقال إنها (في الإقليم الثاني وطولها من جهة المغرب إحدى وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضها من جهة الجنوب إحدى وعشرون درجة وثلاثون دقيقة، وبين اليمامة والبحرين عشرة أيام، وهي معدودة من نجد وقاعدتها حجر)⁽³⁾.

وهي الآن (واحة في المملكة العربية السعودية تدعى — العارض — قاعدتها الرياض عاصمة المملكة ومن بلادها الأخرى الدرعية)⁽⁴⁾.

أما سكانها فهم قبيلتا طسم وجديس، وهما قبيلتان من العرب العاربة، والعرب العاربة هي (قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وطسم، وجديس، وأميم، وجرهم وحضرموت ومن يتصل بهم)⁽⁵⁾. وقد ذكر النسّابون أن طسم هو **(ابن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وأن جديس هو ابن — جاثر — أو — عابر بن إرم بن سام بن نوح، فعلى هذا القول فإن جديس وثمود أخوان، وطسم وعملاق أخوان، وهما ابنا عم لجديس — لأن — والد ثمود وجديس ابنا لاوذ ووالد طسم وعملاق إخوة)**⁽⁶⁾ وهناك من يقول إن **(طسم وجديس ابنا لاوذ)**⁽⁷⁾ أي أنهما

إخوة وليس أولاد عم، والواضح أنه لا اختلاف على أنهما من نسل إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

وقد تجاورت القبيلتان فكانتا — بلغة العصر — محافظتين لدولة واحدة تسمى جو، أما كيف تم هذا التوحيد بينهما؟ فهو راجع إلى سيطرة ونفوذ ملك من طسم يدعى (**عمليق أو عملوق بن هباش بن هيلس بن ملادس بن هركوس بن طسم**)⁽٨⁾ وكان هذا الملك ظلوما عشوما مضرا بجديس مستذلا لهم. ويقول البلاذري (نزلت طسم بين اليمن واليمامة، ونزلت جديس بموضع اليمامة، وكانت اليمامة تعرف «بجو» سمّتها جديس بذلك، وكانت بين طسم وجديس حروب أفنت جديس فيها أكثر طسم فقال القائل: «**يا طسم ما لاقيت من جديس!**»، ثم إن بقية طسم انضمت إلى جديس باليمامة)⁽٩⁾ وسارت الأمور هادئة حتى تملكهم عمليق من طسم، واستطاع بجبروته أن يذيق جديساً الذل، حتى بلغ من ظلمه أنه (أمر بألا تُهدى بِكر من جديس إلى زوجها حتى تدخل عليه أولاً)⁽١٠⁾ وانصاعت جديس لهذا الخسف حتى وقع الأمر مع واحدة من جديس تسمى — عفيرة بنت غفار — التي هالها الأمر، وضجت لما حدث فاستثارت قومها ليهبوا من سباتهم ويرفضوا هذا الذل اللاحق بهم قائلة ضمن أبيات شعرية:

(فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه ... فكونوا نساء لا تغب من الكحل
ودونكم ثوب العروس فإنما ... خُلقتم لأثواب العروس وللغسل
فلو أننا كنا رجالاً ... وكنتم ... نساء لكنا لا نقر على الذل
فموتوا كراماً أو أميتوا عدوكم ... وكونوا كنارٍ شب بالحطب الجزل⁽١١⁾

وكان لها أخ يسمى — الأسود بن غفار — سيد في قومه هب معها داعياً قومه للثأر من هذا الملك، والتحرر من هذا الأسر، فاستجابوا لدعوتها إثر مقالة أخيها لهم: (وقد ترون ما نحن فيه من العار والذل الذي ينبغي للكلاب أن تعافه وتمتعض منه، فأطيعوني فإني أدعوكم إلى عز الدهر ونفي الذل .. قالوا وما ذاك؟ قال إني صانع للملك ولقومه طعاماً فإذا جاءوا نهضنا إليهم بأسيافنا وانفردتُ به فقتلتُه، وأجهز كل رجل منكم على جليسه، فأجابوه إلى ذلك وأجمع

رأيهم عليه، وحضر الملك فقُتل وقُتل الرؤساء، ثم شدوا على العامة منهم فأفنوهم، ولم ينج سوى رجل يقال له — رياح بن مرة، وقيل رباح، فذهب إلى حسان بن تبع وهو — بنجران — فاستغاث به فخرج حسان في حِمْير، فلما كان من اليمامة على ثلاث قال له رياح: أبيت اللعن .. إن لي أختا متزوجة في جديس يقال لها — اليمامة — ليس على وجه الأرض أبصر منها، إنها لتبصر الراكب من مسيرة ثلاث، وأني أخاف أن تنذر القوم بك، فمر أصحابك فليقطع كل رجل شجرة فليجعلها أمامه ويسير وهي في يده فأمرهم حسان بذلك ففعلوا، ثم سار فنظرت اليمامة فأبصرتهم فقالت لجديس، لقد سارت حمير فقالوا: وما الذي ترين؟ قالت أرى رجلاً في شجرة معه كتف يتعرقها أو نعل يخصفها فكذبوها، وكان ذلك كما قالت وصبحهم حسان فأبادهم وأخرب بلادهم وهدم قصورهم وحصونهم، وكانت اليمامة تسمى إذ ذاك جوا، وأتى حسان باليمامة ابنة مرة، فأمر بها ففقئت عيناها، فإذا فيها عروق سود فقال لها: ما هذا السواد في عروق عينيك؟ قالت حجير أسود يقال له الإثمد كنت أكتحل به، وكانت فيما ذكروا أول من اكتحل بالإثمد فأمر حسان بأن تسمى جو اليمامة)(١٢) وذلك بعد أن قتل اليمامة...

هذا ما ذكرته لنا معظم المراجع، على أن ثمة بعضَ إضافات انفرد بها صاحب لسان العرب، نرجئ ذكرها إلى حين.

ونتساءل الآن .. لماذا أغفلت كتب الأنساب ذكر أشخاص هذه الحكاية؟ فنحن لا نجد أي ذكر للأسود بن غفار، ولا لأخته عفيرة، ولا لرياح بن مرة أو حتى عمليق، صحيح أن كتب الأنساب لم تذكر كل الأسماء الجاهلية، لكنها تذكر كل من كان له أثر هام أو تاريخ يذكر فلماذا ضربت عن ذكرهم صفحاً — إذن؟

وابن حزم يقول (شرطنا ألا نذكر من ولادات أوائل القبائل وأوسطها إلا من أنسل من العرب، وأما من انقرض نسله فلا معنى لذكره إلا من كان من الصحابة — رضي الله عنهم — وأبنائهم وأهل الشرف ونباهة الذكر فلا بد من ذكرهم، أو يدعو سبب إلى ذكر من انقرض عقبه لشهرته أو لبعض الأمر وان انقرضت أعقابهم)(١٣) فكيف إذاً أغفلت كتب الأنساب

ذكر هؤلاء فلم تشر إلى أي واحد منهم باستثناء ـــ حسان بن تبع ـــ، رغم أن الأسود بن غفار بعد أن هرب من حسان أقام (بجبل طيئ قبل أن تنزله طيئ، إلى أن قتلته طرء وسكنوا الجبل من بعده)(١٤).

هل يرجع إغفال ذكرهم إلى أنه لا وجود لهم في الحقيقة؟ .. أكاد أميل إلى هذا.

ونعود إلى الشعر الذي نسب إلى عفيرة بنت غفار، فهي تقول:

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه　　فكونوا نساء لا تغب من الكحل

ونقف أمام هذا البيت الشعري لنسأل، من أين عرفت عفيرة الكحل إذا كانت **(اليمامة)** قد انفردت وحدها بمعرفة الكحل؟.. أم أنهم كانوا يكتحلون بشئ غير الإثمد الذي عرفته اليمامة؟.. يقول «وجدي» في دائرة معارفه إن العرب يكتحلون بالإثمد، وعلى هذا فالكحل لم يكن معروفاً قبل الزرقاء. وأغلب الظن أن هذا الشعر موضوع.

وقد صور لنا الأعشى هذه القصة في أبيات له فقال :ـــ

(قالت أرى رجلاً في كفه كتف　　أو يخصف النعل لهفي أية صنعا
فكذبوها بما قالت فصبحهم　　ذو آل حسان يزجي الموت والشرعا
فاستنزلوا أهل جو من منازلهم　　وهدموا شاخص البنيان فاتضعا)(١٥)

إلا أن المرزباني نقل عن ابن طباطبا طعنه في هذه القصيدة(١٦).

ورغم أن معظم الكتب ذكرت أن سبب غزو حسان لجديس راجع إلى دعوة رياح بن مرة له ليثأر من جديس لفتكها بعمليق وأتباعه، إلا أننا نجد البلاذري يذكر سبباً آخر لغزو حسان نقلاً عن حماد الراوية، يقول البلاذري (ان جديس منعت خرجا كان عليها)(١٧) وتضارب الأقوال، وعدم وضوح الرؤية يجعلنا نشك في حدوث ما قيل حول الزرقاء، وحول قوة نظرها الخارقة .. ولهذا حديث آخر.

● اسم الزرقاء ●

الزرقة صفة لعينيها، لأن الزرقة (خضرة في سواد العين، وقيل هو أن يتغشى سوادها بياض)(١٨) ، ولم تكن وحدها التي تتصف بزرقة العينين فقد كانت (الزباء زرقاء وكانت البسوس زرقاء)(١٩) أما اسمها فقد اتفقت المصادر على أن الزرقاء اسمها — اليمامة — ويقول الطبري إنها — اليمامة بنت مرة — ويقول ياقوت إن اسمها اليمامة بنت سهم بن طسم، ويرى الجاحظ خلاف هذا، فيقول **(عنز وأنها من بنات لقمان بن عاديا)**(٢٠) بينما جاء في المنجد أنها حذام فقد ذكر في مادة حذم (حذام علَم لامرأة في الجاهلية من العرب اليمانية يضرب بها المثل في حدة البصر وصدق الخبر، وتلقب بزرقاء اليمامة، وفيها قيل أبصر من زرقاء اليمامة وقال الشاعر:

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام)

فأيهما هو الاسم الصحيح للزرقاء؟... لنتبين الأمر قبل أن نجنح أو يميل بنا الهوى، ولنقرأ سوياً ما جاء في لسان العرب فهذا حينه..

يقول ابن منظور (من أمثال العرب المعروفة — ركبتْ عنزٌ بِحِدْجٍ جملاً، وفيها يقول الشاعر:—

شر يوميها وأغواه لها ركبت عنز بحدج جملاً

قال الأصمعي: «وأصله أن أمرأة من طسم يقال لها عنز أخذت سبية فحملوها في هودج وألطفوها بالقول والفعل فعند ذلك قالت: شر يوميها...».

تقول شر أيامي حين صرت أكرم للسباء، وحكى ابن بري قال: كان الملك على طسم رجلاً يقال له عملوق أو عمليق .. — ثم ساق القصة كما ذكرت من قبل إلى أن قال — ولم يفلت سوى رجل يقال له رياح بن مرة توجه حتى أتى حسان بن تبع، فاستجاشه عليهم، ورغبه فيما عندهم من النعم وذكر أن عندهم امرأة يقال لها عنز ما رأى الناظرون لها شبهاً، فأطاعه حسان وخرج هو ومن عنده حتى أتوا جوّاً، وكان بها زرقاء اليمامة، وكانت أعلمتهم

بجيش حسان من قبل أن يأتي بثلاثة أيام، فأوقع بجديس وقتلهم وسبى أولادهم ونساءهم، وقلع عيني زرقاء وقتلها وأتى إليه بعنز راكبة جملاً، فلما رأى ذلك بعض شعراء جديس قال: —

ويل عنز واستوت راكبة   فوق صعب لم يقتّل ذللا
شر يوميها وأغواه لها   ركبت عنز بحدج جملا
لا ترى من بينها خارجة   وتراهن إليها رسلا(٢١)

* * *

هذا ما ذكره ابن منظور — ولكن لنا وقفة أيضاً مع ما ذكره في اللسان..

يقول ابن منظور نقلاً عن الأصمعي .. وأصله أن امرأة من طسم — وهذا خطأ واضح فحسان بن تبع جاء أصلاً ليثأر لطسم من جديد وليس العكس، وكان الأولى أن يقال: إنها من بنات جديس، هذا إن كانت عنز — كما يقولون — هي الزرقاء فمعروف أن الزرقاء من الجديسيين. وتحذيرها كان لجديس. هذه نقطة .. ونقطة أخرى .. فما قاله رياح بن مرة لحسان لا يعني أن عنزا هي الزرقاء كما قال الجاحظ، فرياح يقول — إن عندهم امرأة ما رأى الناظرون لها شبهاً — وقوة النظر وحدته ليست من الأمور التي يمكن للمرء أن يراها بمجرد رؤية صاحبها. ويبدو أن عنزاً كانت امرأة بارعة الحسن فائقة الجمال، ليس لها في الجمال نظير بين مثيلاتها، يؤيد هذا ترغيب رياح لحسان بن تبع فيما عندهم، ويبدو أنه منّاه بالظفر بهذه المرأة الجميلة، يضاف إلى هذا أن الرواية تقول إن حسان — أوقع بجديس وقلع عيني زرقاء وقتلها وأتى إليه بعنز راكبة جملاً —، وهذا يعني أن عنزاً واحدة أخرى غير الزرقاء لأن إحضار عنز كان بعد مقتل الزرقاء هذا ما يمكننا أن نعترض به على دعوى من يقول بأنها عنز.

أما ما قيل على لسان النمر بن تولب الشاعر العكلي المخضرم، فلن نعلق عليه بشيء حيث أنه ناقض نفسه بنفسه، ووضح في شعره تضارب الأقوال، فكيف نتخذه حجة، وهو نفسه لا يقر على قرار .. رغم هذا فلا بأس من أن نذكر أبياته نقلاً عن الطبري يقول:

(هلا سألت بعادياء وبيته　　والخل والخمور التي لم تمنع
وفتاتهم عنز عشية آنست　　من بعد مرأى في الفضاء ومسمع
قالت أرى رجلاً يقلب كفه　　أصلاً وجو آمن لم يفزع
ورأت مقدمة الخميس وقبله　　رقص الركاب إلى الصباح بتبع
فكان صالح أهل جو غدوة　　صبحوا بذيفان السمام المنقع
كانوا كأنهم من رأيت فأصبحوا　　يلوون زاد الراكب المتمتع
قالت بمامة أحملوني قائماً　　إن تبعثوه بإركابي أصرع)(٢٢)

وقد أشار إلى الحكاية النابغة الذبياني فقال:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت　　إلى حمام شراع وارد الثمد

□ الزّرقاء هل هي حقيقة أم خيال ؟

□ وليمة ضاع فيها الملك ..

□ عفيرة أول من ثارت من أجل كرامة المرأة في الجاهليّة.

وقال عن فتاة الحي إنها الزرقاء، كانت لها قطاة ومر بها سرب من قطا بين جبلين فقالت:

(ليت الحمام ليه إلى حمامتيه
ونصفه قديه تم الحمام ميه)(١٣)

ولا أعرف من أين جاء أصحاب المنجد باسم حذام هذا؟.. فالبيت الذي استشهدوا به جاء عنه في مجمع الأمثال (زعموا أنه كان تحت لجيم بن صعب امرأة من عنزة يقال لها حذام بنت العتيك فولدت له عجل بن لجيم، والأوقص بن لجيم، ثم تزوج بعد حذام صفية بنت كاهل فولدت له حنيفة بن لجيم، ثم إنه وقع بين امرأتيه تنازع فقال لجيم:

(إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام)(٢٤)

● فما دخل هذه الحكاية بزرقاء اليمامة؟..

حقيقة الأمر أن الزرقاء هي — اليمامة بنت مرة — أو — مر.. لاسيما وأن الذي قال لحسان أن لي أختاً تسمى اليمامة هو — رياح بن مرة، ويؤيد ما قلناه ما نسب إلى حسان من قوله عند منصرفه من جو:

(وقلنا فسموها اليمامة باسمها وسرنا وقلنا لا نريد إقامه)(٢٥)

● وقفة موضوعية ●

بعد ان استعرضنا معاً قصة الزرقاء من البداية حتى النهاية، كما جاءت في المصادر، يمكننا أن نتساءل .. هل الحكاية حقيقية؛ أم أنها مجرد قصة خيالية ولا أساس لها من الصحة..؟

أكاد أميل إلى أنها حكاية خيالية فقط .. فالزرقاء كما تذكر المصادر كانت ترى الركب من مسيرة ثلاث، وتخفف بعضهم إلى أنها كانت ترى من مسيرة يوم وليلة ... حتى أنها كانت تبصر

الرجل من على هذا البعد وهو يمسك في يده النعل أو الكتف بل وفي جنح الليل .. وهي مسافة: قيل عنها **(كانت ترى من مسافة ثلاثين ميلاً)**(٢٦) والميل العربي عند الجغرافيين العرب كما جاء في معجم المصطلحات الجغرافية (ليس من السهل تحديده ولكن يرى الأستاذ نللينو المستشرق أنه يساوي ١٩٧٣,٢ متراً)(٢٧) أي أنه يقارب الكيلومترين، معنى هذا أن الزرقاء كانت ترى من على بعد يقدر بتسعة وخمسين كيلومتراً، أي أنها لو وقفت في الرياض، فبإمكانها أن ترى شخصاً وراء الدرعية بأربعين كيلومتراً .. ولو كانت في مكة المكرمة لرأت الواقف عند مشارف جدة — المسافة بين مكة وجدة ٧٠ كيلومتراً — وأعتقد أنها مسافة جد شاسعة بالنسبة لنظر الإنسان مهما كانت قوة نظره، هذا إذا سلمنا بخلو المسافة من الجبال والتلال. وهناك مسألة أخرى إنسانية استوقفتني .. لماذا لم يتدخل رياح بن مرة ليشفع لاخته عند حسان حتى لا يقتلها بعد أن قلع عينيها وأبطل مفعولها..؟ وكلنا يعرف حمية العربي، وبخاصة أن موتها لن يفيد حسانا في أي شيء .. أغلب الظن .. أن القصة خيالية ولا أساس لها في الواقع .. وإن كان هناك من يجزم بوقوعها فلا بد له أن يعترف بأن القصة لازمها شيء من التهويل، والإفراط في اللامعقول، ويؤيد هذا ما قيل رغم ما ذكرناه سابقاً (أحاديث طسم وأخبارها وقيل وأحلامها، وهو يضرب لمن يخبرك بما لا أصل له)(٢٨).

* * * * *

على أن هذا لا يغض ولا ينقص من قيمة هذا التراث، الذي تزخر به الكتب والتي تثبت أن للعرب حضارة عظيمة، امتد نورها يوماً، فغمر أنحاء البسيطة وأركان الدنيا ... وإذا كان العرب قد أرسوا دعائم الطب، والفلك، والتاريخ ... فإن حكاية الزرقاء لتثبت أن للعرب معرفة — قديمة — بالقصة القصيرة، قبل أن يتناولها ألنبو، وموباسان، وتشكوف.

وسواء أكانت الزرقاء حقيقة .. أم كانت قصة خيالية فحسب، فإننا سنظل نضرب بقوة بصرها المثل كما ضرب به سابقونا: «إبصر من زرقاء اليمامة».

○○○○